

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة التابعين - الدرس ١ : التابعي شريح القاضي .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٢-١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

الأستاذ جمال

التابعـي الجليل القاضـي شـريح هـو محـور هـذا اللـقاء الطـيب إـن شـاء اللهـ.

لم يكن شريح بن الحارث لما ولأه عمر القضاء رجلاً مجهولاً في المجتمع المدني، أو امرأً مغموراً في منزلة بين أهل العلم وأصحاب الرأي، من جهة أصحاب رسول الله وكبار التابعين، فقد كان أصحاب الفضل والسابقة يقدرون لشريح فطنته الحادة وذكاءه الفذ، وخلقه الرفيع، وطول تجربته في الحياة وعمقها، فهو رجل يمني الموطن كندي العشيرة، قضى شطراً غير يسير من حياته في الجاهلية، فلما أشرقتجزيرة العرب بنبور الهدى، ونفت أشعة الإسلام إلى أرض اليمن كان شريح من أوائل المؤمنين بالله ورسوله، المستجيبين لدعوة الهدى والحق، وكان عارفوا فضله ومقدروا شمائـه و مزاـيـاه يأسـون عـلـيـه أـشـدـ الأـسـيـ، و يتـمنـون أـن لاـ يـتـيحـ لـهـ أـنـ يـفـدـ عـلـىـ المـدـيـنـةـ مـبـكـراـ، ليـقـىـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـ سـلـمـ قـبـلـ أـنـ يـلـحـقـ بـالـرـفـيقـ الـأـعـلـىـ، وـ لـيـنـهـلـ مـنـ مـوـارـدـ الصـافـيـةـ الصـافـةـ مـبـاشـرـةـ لـاـ بـالـوـاسـاطـةـ، وـ لـكـيـ يـحظـىـ بـشـرـفـ الصـحـبـةـ بـعـدـ أـنـ حـظـيـ بـنـعـمةـ الإـيمـانـ، وـ بـذـلـكـ يـجـمـعـ الـخـيـرـ مـنـ أـطـرـافـهـ، وـ لـكـنـ مـاـ قـدـرـهـ اللهـ كـانـ، وـ لـمـ يـكـنـ الـفـارـوقـ رـضـوانـ اللهـ عـلـيـهـ مـتـعـجـلاـ حـيـنـاـ عـهـدـ إـلـيـهـ بـمـنـصـبـ مـنـاصـبـ الـقـضـاءـ الـكـبـرـىـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ سـمـاءـ الـإـسـلـامـ كـانـتـ يـوـمـئـذـ مـاـ تـرـازـ تـنـائـقـ بـالـنـجـومـ الـزـهـرـ مـنـ صـحـابـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـ سـلـمـ، فـقـدـ أـثـبـتـ الـأـيـامـ صـدـقـ فـرـاسـةـ عـمـرـ وـ صـوـابـ تـدـبـيرـهـ، إـذـاـ ظـلـ شـريـحـ يـقـضـيـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ نـحـواـ مـنـ سـتـينـ عـامـاـ مـتـابـعـةـ مـنـ غـيـرـ اـنـقـطـاعـ، وـ قـدـ تـعـاقـبـ عـلـىـ إـقـرـارـهـ فـيـ مـنـصـبـهـ كـلـ مـنـ عـمـرـ وـ عـثـمـانـ وـ عـيـ وـ مـعـاوـيـةـ رـضـوانـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـيـهـمـ أـجـمـعـينـ، كـمـاـ أـقـرـهـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ جـاءـ بـعـدـ مـعـاوـيـةـ مـنـ خـلـفـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ حـتـىـ طـلـبـ الرـجـلـ إـعـفاءـ مـنـ مـنـصـبـهـ إـيـانـ وـ لـاـيـةـ الـحـاجـ، وـ كـانـ قـدـ بـلـغـ السـابـعـةـ بـعـدـ الـمـائـةـ مـنـ حـيـاتـهـ الـمـدـيـدـةـ الـرـشـيـدـةـ الـحـافـلـةـ بـالـمـفـاـخـرـ وـ الـمـآـثـرـ.

فضـيـلـةـ الشـيـخـ مـحـمـدـ رـاتـبـ النـابـلـسـيـ

لقد ازدان تاريخ القضاء في الإسلام ببدائع من مواقف شريح، وطبعاً كلها مأثر خالدة يشهد لها القاضي و الداني، وامتلأت بطون الكتب بطرائف هذا الرجل الفذ، و بأخباره أيضاً، وأقواله وأفعاله، حبذا أن نزود الأخ المستمع بشيء عن هذا الموضوع.

هذا سيكون إن شاء الله، ولكن سأبدأ الحديث عن هذا القاضي الفذ بقصة من زواجه رضي الله عنه وأرضاه.

قال القاضي فضيل لزميه شريح: كيف حالك يا شريح؟ قال: و اللهِ منذ عشرين عاما لم أجد ما يعکر صفائى، قال: و كيف ذلك يا شريح؟ قال: خطبت امرأة من أسرة صالحة، فلما كان يوم الزفاف وجدت صلاحا و كمالا، فصليت ركعتين شكرًا لله على نعمة الزوجة الصالحة، و لما سلمت من صلاتي وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، و تسلم بسلامي و تشكر شكري، فلما خلا البيتُ من الأهل والأحباب دنوت منها و قالت لي: على رسلك يا أبا أمية، فقامت وخطبت، وقالت: يا أبا أمية إني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب و ما تكره، فقل لي ما تحبه حتى آتيء، وما تكره حتى أجتبه، ويا أبا أمية: لقد كان لك من نساء قومك من هي كفوئ لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفوئ لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله ليقضى الله أمرًا كان مفعولا، فاتق الله في، و امتنّ قوله تعالى:

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

[سورة البقرة]

ثم قعدت، فقال شريح: فأجلجأته إلى أن أخطب، وقفـت و قلت: أما بعد فقد قلت كلاما إن تصدقـي فيه و تثبتـي عليه يكنـ لك ذخرا و أجرـا، و إن تدعـيه يكنـ حـجة عليكـ، أحبـ كـذا و كـذا، وأكـرهـ كـذا و كـذا، وما وجدـتـ من حـسنةـ فـانـشـريـهاـ، وـماـ وـجـدـتـ منـ سـيـئةـ فـاسـتـرـيـهاـ، الأـسـتـاذـ جـمـالـ النـبـيـ عـلـيـ الـصـلـاـ وـ السـلـامـ كـانـ يـقـولـ: إـنـيـ أـكـرـهـ الـمـرـأـةـ تـخـرـجـ مـنـ بـيـتـهـ تـشـكـيـ مـنـ زـوـجـهـ، وـلـاـ يـنـظـرـ اللهـ إـلـىـ اـمـرـأـةـ لـتـشـكـرـ لـزـوـجـهـ وـهـيـ لـاـ تـسـغـنـيـ عـنـهـ " قال شريح: وما وجدـتـ منـ حـسـنةـ فـانـشـريـهاـ، وـماـ وـجـدـتـ منـ سـيـئةـ فـاسـتـرـيـهاـ، وـماـ وـجـدـتـ منـ سـيـئةـ فـاسـتـرـيـهاـ، وـالـنـبـيـ عـلـيـ الـصـلـاـ وـ السـلـامـ وـصـفـ المـرـأـةـ الصـالـحةـ بـأـنـهـ سـيـتـرـةـ، لـاـ تـفـضـحـ زـوـجـهـ، فـقـالـ: وـماـ وـجـدـتـ منـ حـسـنةـ فـانـشـريـهاـ وـماـ وـجـدـتـ منـ سـيـئةـ فـاسـتـرـيـهاـ، فـقـالـتـ: طـيفـ نـزـورـ أـهـلـكـ وـأـهـلـكـ ؟ قـالـ: نـزـورـهـمـ غـيـرـاـ مـعـ انـقـطـاعـ بـيـنـ الـحـيـنـ وـالـحـيـنـ لـثـلـاـ يـمـلـونـاـ، وـفـيـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ: زـرـ غـيـرـاـ تـرـدـدـ حـبـاـ " قـالـتـ: فـمـاـ مـنـ الـجـيـرانـ تـحـبـ أـنـ تـسـمـحـ لـهـنـ مـنـ دـخـولـ بـيـتـكـ، مـنـ تـكـرـهـ ؟ قـالـ: بـنـوـ فـلـانـ قـوـمـ صـالـحـونـ، وـبـنـوـ فـلـانـ قـوـمـ غـيـرـ ذـلـكـ، يـقـولـ شـرـيحـ: وـمـضـىـ عـامـ عـدـتـ فـهـ إـلـىـ الـبـيـتـ فـإـذـاـ أـمـ زـوـجـتـيـ عـنـدـنـاـ، رـحـبـتـ بـهـ أـجـمـلـ تـرـحـيبـ، وـكـانـتـ قـدـ عـلـمـتـ مـنـ اـبـنـتـهـ أـنـهـاـ فـيـ أـهـنـاـ حـالـ، قـالـتـ لـيـ: يـاـ أـبـاـ أـمـيـةـ - أـمـ زـوـجـتـهـ - كـيفـ وـجـدـتـ زـوـجـتـكـ ؟ قـلـتـ: وـالـلـهـ هـيـ خـيرـ زـوـجـةـ، قـالـتـ: يـاـ أـبـاـ أـمـيـةـ أـمـ أـوـتـيـ الرـجـالـ شـرـاـ مـنـ الـمـرـأـةـ الـمـدـلـلـةـ فـوـقـ الـحـدـودـ، فـأـلـبـ مـاـ شـئـتـ أـنـ تـؤـدـبـ، وـهـذـبـ مـاـ شـئـتـ أـنـ تـهـذـبـ، ثـمـ التـقـتـ إـلـىـ اـبـنـتـهـ تـأـمـرـهـاـ بـحـسـنـ السـمـعـ وـ الطـاعـةـ، وـمـضـىـ عـلـيـ عـشـرـونـ عـامـ لـمـ أـجـدـ مـاـ يـعـكـرـ صـفـائـيـ إـلـاـ لـيـلـةـ وـاحـدةـ كـنـتـ فـيـهـاـ أـنـ الـظـالـمـ. هـذـهـ قـصـةـ زـوـاجـهـ، وـقـدـ طـلـبـتـ مـنـيـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـلـقـاءـ أـنـ أـتـحـدـثـ عـنـ بـعـدـ مـوـاـفـقـهـ الـعـادـلـةـ - وـ طـبـعـاـ هـذـهـ قـصـةـ طـيـبـةـ نـسـقـيـدـ مـنـهـاـ وـنـتـلـوـ، فـضـيـلـةـ الشـيـخـ مـحـمـدـ رـاتـبـ النـابـلـسـيـ - إـنـ شـاءـ اللـهـ.

سيـدـنـاـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ اـفـنـدـ درـعـاـ لـهـ كـانـتـ أـثـيـرـةـ عـنـدـ غـالـيـةـ عـلـيـهـ، ثـمـ مـاـ لـبـثـ أـنـ وـجـدـهـ فـيـ يـدـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ الذـمـةـ، بـيـعـهـاـ فـيـ سـوقـ الـكـوـفـةـ، فـلـمـ رـأـهـاـ عـرـفـهـاـ وـ قـالـ: هـذـهـ درـعـيـ

سقطت عن جمل لي في ليلة كذا، وفي مكان كذا، فقال الذمي: بل هي درعي في يدي يا أمر المؤمنين، فقال علي: إنما هي درعي، لم أبعها من أحد ولم أهبها لأحد حتى تصير إليك، فقال الذمي: بيني وبينك قاضي المسلمين، قال علي: أنصف فهم إليه، ثم إنهم ذهبا إلى شريح القاضي، فلما صارا عنده في مجلس القضاة قال شريح علي رضي الله عنه: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: لقد وجدت درعي هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت مني في ليلة كذا وفي مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا ببهبة، فقال شريح للذمي: وما تقول أنت إليها الرجل؟ فقال: لا الدرع درعي وهي في يدي، و لا أنتم أمير المؤمنين بالكذب، فالتفت شريح إلى علي و قال: لا ريب عندي في أنك صادق فيما تقول يا أمير المؤمنين، وأن الدرع درعك، ولكن لا بد لك من شاهدين يشهدان على صحة ما تدعي، مولاي قبر، و ولادي الحسن يشهادان لي، فقال شريح: و لكن شهادة ابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين، قال علي: يا سبحان الله، رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

[رواہ الترمذی]

قال شريح: بل يا أمير المؤمنين، غير أنني لا أجيز شهادة الولد لوالده، عند ذلك التفت علي إلى الذمي و قال: خذها فليس عندي شاهد غيرهما، فقال الذمي: و لكنني أشهد أن الدرع لك يا أمير المؤمنين، ثم أردد قائلاً: يا الله، أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه، و قاضيه يقضي لي عليه، أشهد أن هذا الدين الذي يأمر بهذا الحق دين الحق - فعلاً سماحة الشيخ هذه مأثرة طيبة لشريح القاضي، و أيضاً موقف طيب و نبيل من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، و رضي الله عنه، نتابع الحديث مع التابعي الصالح الفاضل القاضي شريح. أستاذ جمال،

و ما لبث هذا الذمي أن شهد أنه لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله، ودخل في الإسلام. ومن روائع شريح أيضاً، أن ابنته قال له يوماً: يا أبت إن بيني وبين قوم خصومة فانظر فيها ن فإن كان الحق لي قاضيهم، و إن كان لهم صالحتهم، ثم قصّ عليه قصته، فقال له: انطلق فقضى لهم على ولده، فلما رجع شريح و ابنته إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتي يا أبت، والله لو لم أستشرك من قبل لما لمنك، فقال شريح: يابني، و الله لأنك أحب إلي من ماء الأرض من أمثالهم، ولكن الله عز وجل أعز علي منك، فقد ورد في الأثر: أن عدل ساعة خير من أن تعبد الله ثمانين عاماً " - رضي الله تعالى عن القاضي شريح، التابعي الجليل وأهلاً و مرحباً بسماحة الشيخ محمد راتب النابلسي، الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق، و خطيب جامع عبد الغني النابلسي بدمشق، أيضاً المدرس الديني في مساجد دمشق، نشكركم فضيلة الشيخ، و إلى

اللقاء في الحلقة القادمة، و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته. شكرًا الأستاذ جمال، و
عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

والحمد لله رب العالمين